

## قراءة في ديوان: دعوني أحتسي حبرًا



السبت 9 فبراير 2013 04:03 م

كتب: بقلم: د. خالد فهمي

### (1) سيرة قلم سيرة شاعرا!

تشغلني منذ فترة مسألة الشعرية المنتمية، وهي مسألة تتداخل بشكل ما مع قضايا نقدية عريقة في تاريخ برامج النقد في الثقافات المختلفة، تظهر حينًا باسم الالتزام وحينًا باسم المسئولية الثقافية، وحينًا باسم المنفعة.

وفي إطار من هذا الانشغال أتابع الأصوات الأدبية والشعرية المنتمية التي تصدح بالتعبير عن أفكارها، وتشتبك مع قضاياها، متسلحة بالآدوات الفنية، معنية بالقيم الجمالية، مؤمنة بأن الحركة من أجل أدبية الأدب وشعرية الشعر جهاد بمعنى الكلمة.

والشاعر عبد القادر أمين أحد من هذه الأصوات الشعرية التي تنطلق في تعاطيها الشعري من نافذة الانتماء المفتوح على نوافذ الجمالي، يصدر عن رؤية جادة صانعة ومفكرة، ومعبرة، ملقحة بأجنحة فنية وجمالية تنسرب في جسم القصيدة، وقد أصابت تصميمها، وبنيتها الداخلية، وموسيقاها، وأنظمة خيالها.

وقارئ المنجز الشعري لعبد القادر أمين لا يمكنه أن ينكر رمزية القلم في أعماله جميعًا، في ديوانه: من نبض القلم، ثم في ديوانه: لمين بتكتب يا قلم ثم في ديوانه الذي بين أيدينا: دعوني أحتسي حبرًا.

وأعتقد- وأنا على حق فيما أعتقد- أن الدخول إلى العالم الشعري في هذا الديوان وفيما سبقه ينبغي أن يستصحب ما يتفجر من دلالات مخبوءة في العلامة اللغوية: القلم.

إن القلم في المعجزة العربية يدور حول معنى مركزي يتعلق بدلالة النسوية والاستقامة الناتجة بعد عملية البري التي تنصب على أنبوب الغاب.

يهو في الثقافة العربية مرتبط ارتباطًا جوهريًا بصناعة المعرفة، وبغضبية الإيمان والاتصال بالسماء في تجليات الوحي العظيم.

وهو في الثقافة العربية يتداخل مع قيم التعالي والتسامي والرفعة والصحة الآمنة، والرفعة الحانية لقد استحال القلم على امتداد التاريخ نورًا هاديًا وثبت هذه الصورة ورسخها الذكر الحكيم بما أحاط به القلم من كرامة في السياقات المختلفة، ثم جاءت الشعرية العربية في تقاليد الحضارة محتفية به ومحتفية بآثاره، حتى قال أبو الطيب:

وخير جليس في الزمان كتاب

وهو ما يعني بحق أن خير صحبة في الوجود هي صحبة القلم لم لا؟ أو ليس الكتاب الذي هو خير جليس في الزمان هو ابن ذلك الأب الكريم الذي هو القلم؟!

### (2) القلم والحكمة النافذة

ربما يصح أن يقرأ هذا الديوان في سياق البحث عن مسارات النجاة من اللحظة المأزومة فعلاً، والشعر يرى في نفسه دوماً القائد في هذه الرحلة، لا يرضى بغير ذلك المقام، ولا يتنازل عن تلك المكانة، ولأجل ذلك صبح على امتداد التاريخ أن يقال: "إن الشعر... يمثل أداة هامة لأجل زيادة الشحنة العاطفية التي تقوى المعرفة" وربما صبح كذلك أن يتقرر: "أن الشعر هو الذي يصوغ المعرفة أو الفكرة"، على حد تعبير الدكتور أسعد دوراكوفيتش في كتابه: (علم الشرق ص 52 طبعة الكويت 2010م)

ببد القادر أمين مرتحل في سبيل نجات قومه، ومرتحل بعد تحقيق هذه الخطوة إلى نجات الإنسان، أو نجات العالم، وصناعة سلامه. في الطريق نحو إنجاز هذه الرحلة تتبدى أسلحة القلم، والورق والحبر، والكتابة لتنجز الحكمة النافذة التي تخلق النجاة والسلام.

(1-2) وربما دعم ذلك التوجه من جانبنا توافر شعرية الحكمة في هذا الديوان عن في عدد كبير من أبيات القصائد، وإن في كل المقطوعات القصيرة المكتنزة بالحكمة، ولعل المعيار الظاهر هنا هو حرص الشاعر على تصميم قصائده على ما يمكن أن يسمى ببنية التأمل، واستثمار المفارقة العقلية لإظهار المخبوء، من ملاح الحكمة، ومن أدلة ذلك قوله في مقطوعته: صفقة:

\* من يادلني بالأوطان..

\* كسرة خبز..

\* شربة ماء

\* أحمله فوق الأعناق

\* وأتوجه..

\* ... رمز غباء

وفي هذه المقطوعة اعتماد أساسي على تقنية المفارقة، واستثمار تقنية التصعيد أو التأزيم climax المستعارة من صناعة القصة الذي يصل ذروته عند قوله:

أحمله فوق الأعناق

وأتوجه..

ثم في لحظة التثوير أو النهاية تنفك مغاليق الأزمة عندما يكشف الشاعر عن المكافأة أو التاج؛ ليكون رمز غباء

بهي مفارقة تحمل طاقة موحية قوية لأنها تعتمد بنية التناقضات، وتنطلق من أفق غير المتوقع.

ببدو الحكمة في كل الديوان هي سفينة نجات الوطن، ونجاة القوم، ونجاة العالم

(2-2) وبدعم هذا الخيط توافر المعجم المرتبط ارتباطاً عضوياً بالقلم الذي يستحيل على امتداد الديوان معادلاً موضوعياً للحكمة والنجاة.

يظهر الورق، ويتجلى في صور كثيرة يبحث الإنسان فيها عن أمانه وارتياحه، واستعادة نشاطه، يقول الشاعر في قصيدته: أرق على سرير الورق:

هون على قلب القصيدة جرحها \* دع عنك يأسك وامتنط أعلامها

...

تتبرج الأوراق يبسم نغرها \* فيسيل من شفة السطور لعبها

ومع تقدير هذه الصورة الكلية (اللوحة) التي تتبدى فيها الورقة عروساً تتفجر جمالاً، وحسناً، تفجر في قلب عاشقها ولها، تدفعه دفعا إلى وصلها، تتحول الورقة إلى رمزية تخلق الفرحة الجليل بما تنشره من حكمة تتراقص على سطورها وتظهر الأوراق مفردة، وتظهر مجموعة، لعل أجل صور تجمعها تتمثل في صورة الديوان، بمعناها المنسج العام الذي هو (كل كتاب) أو بمعناها الضيق الخاص الذي هو (كتاب الشعر)، هذا التنوع دال على الحفاوة بتجليات الورق المادية جميعاً، يقول الشاعر في قصيدة: اقرأ ديوانك:

\* في لحظة الأجل المحنوم ساعته

\* قامت قيامة أوراقي

\* فبعثرها

\* نفخ الكلام

\* ومرت من على سطري

\* مر الكرام

\* ويسعى النور بالبشر

(3-2) ولا يمكن للقلم الذي يسعى نحو وصل أمره بالورق أن يتم هذه الوصل المقدس من دون توفير مادة صنع هذا الوصل وهو الحبر، والحبر وإن بدت لفظة تأسيسية في الديوان منذ عنوانه فهو لا يتصور من غير وجود الرحم الذي يستوعبه وهو القلم

؛ الحبر متى ظهر في هذا الديوان يظهر وقد أحاطت به ملامح الإجلال وعلامات التقدير، ومحددات الحفاوة

يقول الشاعر

طهر المعاني للمحراب محبرتي

...

فالشعر أرحب لي

والحبر أجمل بي

والبيت أوسع.. والعقبى لمن كتبنا

في هذه الأسطر يلوح الحبر محفوقًا بأية الإجلال والتقدير، جاء وقد أخبر عنه بنص صريح في التحسين والقبول

وحيث يظهر الحبر في بعض تعابير مراوغة في القصيدة التي حمل الديوان عنوانها، يظهر كذلك محفوقًا بدلالات إيجابية إيمانية من جانب، وسلاخًا يحرر الإنسان من كل صور العبودية والرق؛ يقول الشاعر:

وممزوجًا بكأس من عصير الحبر في نفسي

شربت السم من حظي

وساعتها... نطقت شهادتي دمًا

يحمم سطر إيماني

...

دعوني أحتسي حبرًا

أفجر كل أوراقى على صدري

وسيف قصيدتي يمضي على نحرى ليرحمني

ن كل تجليات القلم وعلاقاته المتشابكة بالكتابة والورق والحبر تنطق معلنة أن تحرر الأوطان والإنسان يبدأ من بوابة الحكمة!

سبق مني في هذه القراءة أن قررت أن عبد القادر أمين واحد من أخلص الأصوات الشعرية المنتمية، والشعرية المنتمية بما هي شعرية طامحة نحو خدمة المسؤولية، وصياغة المعرفة لا يمكنها أن تتنكر للجمالية، ذلك الكلام إذ خاصم محددات الجمال خرجت روحه، وصار جثة هامدة لا تنتج شيئًا نوشك بعد قليل أن تستحيل رمة تشيد جبالاً من النفور.

(1-3) وعبد القادر أمين يحتفل باعتبار غاية الديوان وقصيته بمعجم مسكون بمحددات رومانسية جديدة إيجابية خضراء، تنفر من اليأس وتواجه التشاؤم، وتنفخ الروح في العودة المأجدة.

لقد ظهر على امتداد قصائد الديوان حفاوة كبيرة بمعجم الحزن والبكاء طريقتًا ودافعًا نحو التغيير، مختلطًا بمعجم النور والزهور، في تجلياتها المختلفة في النهار والصبح والفجر والضحى، وهي أوقات تحاط بالفرح المنتظر والمتحقق في الثقافة العربية والثقافات الإنسانية عمومًا، يقول الشاعر:

\* صباح الفرح يا مصر

..

\* صباح حكاية تبقى على الأزمان ممتدة

’ لتمحو من رءوس الشعب ما ضده

وتعانق هذه الحقول جميعًا بألفاظ من حقول الورد والعطر والسحر والنصر والخصب متجسدًا في السنابل والزرع والأشجار والأرض جميعًا، يقول الشاعر:

\* حرث الأرض بفأس الحب

\* وألقى الحب بسم الله

\* وروى النبات بماء الورد

وهذه النوع من الحقول يخلق ثقافة البهجة والارتياح والانتعاش، لأنها حقول يسكن الإنسان حبتها والتعلق بها بشكل فطري، وكلما امتدت يد لاغتيالها حن الإنسان إلى عودتها.

بهي حقول تقيم العلامات على العالم المنشود الذي يطمح الشاعر أن يتخلق واقعياً بعد أن تخلق شعرياً.

(2-3) وعلى مستوى بنية التراكيب في قصائد الديوان فإن ثمة حضوراً كثيفاً بالمعايير الإحصائية لأسلوب الاستفهام، وأسلوب الاستفهام يتكافل تكافلاً إيجابياً مع قضية الحكمة النافذة، ومع قضية المعرفة المنجية.

وقد استحال الاستفهام في بعض الأحيان إلى تقنية مركزية مثلت الأساس في تصميم عدد من قصائد الديوان في مثل قصيدة: من علمك؟ فمذ بداية القصيدة، وانطلاقاً من عنوانها تجلى الاستفهام أساساً لبناء القصيدة، حاكمًا على معمارها، يقول الشاعر:

\* من علمك

\* أن تهجر العش الأمين غباوة

\* كي تمتلك

\* حجرًا هلك

والاستفهام دوران جاء مناسياً لقضية النجاة من خلال سفينة الحكمة يحقق جماليات أخرى تقوم مقام وظيفة التصوير وبعوض غيابه، وتخلق روحاً إقناعية، بما تشيعة من أجواء التأمل على طريق البحث عن إجابات ولو لم تكن مطلوبة، أو مطلوباً الإعلان عنها.

(3-3) ومع ذلك فإن ثمة عناية ظاهرة من الشاعر بالصور الكلية، أو بمنطق اللوحات ولعل أكثر الصور الكلية دوراً في قصائد الديوان هو تصوير الورق دوماً في صورة عروس تتزاحم في تشكيلها ملامح الجمال المادي والروحي، وملامح الحسن الخلقى الخلقى، يقول الشاعر:

\* نام الورق

\* وتمددت فيه السطور

\* فكت صفائرها

\* لم تنسدل إلا على الحرف الحلال

\* خلقت حروف غنائها.. وتجملت

\* وترينت

\* فكأنها بدر البدور

ومسألة التصوير بالعطيف سمة تميز الشعرية المنتمية ولعل أظهر أمثلتها السائرة التعبير الشعري المتدفق لجابر قمبيحة أحد آباء الشعرية المنتمية المعاصرين عندما قال:

الكلمة عرض الشاعر!

وهذه الصورة التي تتمدد فيها العروس (الورق) وهي تفك صفائرها، لتتركها تنسدل على الحروف الحلال حصرتاً بدلالة "إلا" الاستثنائية تقرر أن طريق النجاة مرسومة عمارتها وقد شيدت من لبنات الحكمة الجليلة والحق المقيم المتندر بأثواب الزينة والجمال.

عد قليل سيبدد بدر البدور ظلمات الواقع المريض وتنجو الإنسانية بأثر الخير الذي يسكن فينا.

-----

كلية الآداب- جامعة المنوفية.

